

سورة نوح

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَعِزُّ لَكُمْ مِّنْ دُونِكُمْ وَيُوخِّزُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا بِنَجَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَبُمُدِّدِكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَبَجَعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَبَجَعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أُنْتَبِئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ تَبَاقًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالًا وَوَلَدَةً إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (22) وَقَالُوا لَا تَدْرِنَ آلِهَتِكُمْ وَلَا تَدْرِنَ وِدًّا وَلَا سُوعَاءً وَلَا يُعْوتُّ وَيُعْوقُ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا قَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)

الشرح :

من الآية 1 الى الآية 1

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1)

سورة نوح

التعريف لسورة نوح

هذه السورة كلها تقص قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ; وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ; وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية , وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر , والهدى والضلال , والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة , الضالة , الذاهبة وراء القيادات المضللة , المستكبرة عن الحق , المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان , المعروضة أمامها في الأنفس والأفاق , المرقومة في كتاب الكون المفتوح , وكتاب النفس الممكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني , وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني , والعناء المرهق , والصبر الجميل , والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية , ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي

تتقاضها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون , في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التي يعرضها نوح - عليه السلام - على ربه , وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها في هذا الجهد المضني , والعناء المرهق , مع قومه المعاندين , الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول:

رب . إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزد هم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم , وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت: استغفروا ربكم , إنه كان غفارا , يرسل السماء عليكم مدرارا , ويمدكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ? وقد خلقكم أطوارا ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ? والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا . . !

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر:

(رب إنهم عصوني , واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تدنر ألهتكم , ولا تدنر ودا ولا سواعا ولا يعوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . .) . .

وهي حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هي الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله [ص] وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان , واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل , لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ; وفساد القيادة الضالة وعلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة , وعلى الأمة المسلمة بعامه , وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض , وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة , القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك , وفي وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالقللة المؤمنة , وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين .

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذابين ; ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولا رحيمًا بهم , لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل ; وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح , بعدما استنفد كل الوسائل , وألهم الدعاء على القوم بما ألهم:

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . .

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) . .

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها , وتواصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وإرادة الله وقدره , وأحداث الحقيقة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه:(قال:يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى , إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون) . . وفي حكاية قوله لهم: ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ? والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا , والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا . .

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم , وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب , كما تغمره الروعة والخشوع , وهو يستعرض - بهذه المناسبة - ذلك الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل: ترى تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل , وتلك التضحيات النبيلة , من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ?

ترى هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن , وقد استغرق عمرا طويلا بالغ الطول , لم يكتف قومه فيه بالإعراض , بل أتبعوه بالسخرية والاتهام . وهو يتلقاهما بالصبر والحسنى , والأدب الجميل والبيان المنير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ , وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم , أو يحرقون بالنار , أو ينشرون بالمنشار , أو يهجرون الأهل والديار . . حتى تجيء الرسالة الأخيرة , فيجهد فيها محمد [ص] ذلك الجهد المشهود المعروف , هو والمؤمنون معه . ثم تتوالى الجهود المصنوية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل ? ?

ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود , وكل هذه التضحيات , وكل هذا الجهاد المرير الشاق ? ثم . . ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله , المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار , من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان !?

والجواب بعد التدبر: أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد , وكل هذا الصبر , وكل هذه المشقة , وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ; بل أكبر من الأرض وما عليها ; بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة , تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولا إلى الجهد الإنساني ذاته , بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته ; ولم يجعله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة , أو يمحضه للبشر والمعصية لا يعرف غيرهما كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص !

وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض , لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضنية مريرة , وتضحيات شاققة نبيلة .

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله ; وأن يكون مستودعا لسر من أسرارهِ ; وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود . . وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقريب . . وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه , ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية , وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود الناقص بالكمال المطلق . . . وهي حصيلة تربي على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل , لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية , تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغت باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض , وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة , بل كانت حلما أكبر من الخيال , ولكنه متمثل في واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام , إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم

وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم ومواريبهم . . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل , سواء جاءت مجملة كما هي في الرسائل الأولى , أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله ; هو هذا الذي أثبتته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر: لا علم , ولا فلسفة , ولا فن , ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ; بل انحدرت قيمها ومواريبها وانسانيتها , كما عرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية , على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين , وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي , وأسباب السعادة المادية بحملتها . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا . ولم يرتفع تصورهما للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية , ولم تثبت صلتها بالوجود قط كما تثبتت في ظل هذه العقيدة , ولم تشعر بكرامة " النفس الإنسانية " قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتما إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق - بدون تردد - كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضنية , ومن تضحيات نبيلة , لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض . وإقامة قلوب تنطوي على قيس من نور الله , وتتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم , كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع , الذي شهدته البشرية واقعا في فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعة في الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعا مختلفة من العذاب , وتنكل بهم ألوانا شتى من النكال . كما ألقت إبراهيم في النار , ونشرت غيره بالمنشار , وسخرت واستهزأت بالرسول والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة , ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قيس من نور الله , ويتصل بروح الله !

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه أزكى السلام - لينبئ عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة , وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون منجاذبها , ويتحررون من ريقنها . وهذا وحده كسب كبير , أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة . وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يسجد الله للملائكة لهذا الكائن , الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتهاى - بجهد هو ومحاولته وتضحيته - لاستقبال قيس من نور الله . كما يتهاى لأن ينهض - وهو الضعيف العاجز - بتحقيق قدر الله في الأرض , وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من

الطلاق والتحرر الروحي أن يصحي بالحياة , ويتحمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة , لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقرارها في حياة الآخرين , وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق , يهون الجهد , وتهون المشقة , وتهون التضحية , ويتوارى هذا كله , لتبرز تلك الحصلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله . . .

والآن نستعرض قصة نوح في هذه السورة , وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !

الدرس الأول: 1 - 4 خلاصة دعوة نوح لقومه

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه: أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم . قال: يا قوم: إني لكم نذير مبين: أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم , ويؤخركم إلى أجل مسمى , إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون) . . .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده: (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) . . . فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف , كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله , وصدرت منه الحياة . وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده , فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله , يردونهم إليه . ونوح - عليه السلام - كان أول هؤلاء الرسل - بعد آدم عليه السلام . وأدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض , وممارسته لهذه الحياة ; لعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد , واتخذوا لهم أصناما آلهة . اتخذوها في أول الأمر أنصبا ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أو مشهودة . ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التي سيرد ذكرها في السورة . فأرسل الله إليهم نوحا يردهم إلى التوحيد , ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس - عليه السلام - سابقا لنوح . ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم , لشبهة التحريف والتزويد والإضافة إلى تلك الكتب .

والذي يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن , أن نوحا كان في فجر البشرية ; وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما في دعوته لقومه , ولا بد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة . . . أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحى بأن البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية . وذلك قياسا على ما نراه من سنة الله في الأحياء من طول العمر إذا قل العدد , كأن ذلك للتعويض والتعادل . . . والله أعلم بذلك . . . إنما هي نظرة في سنة الله وقياس !

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده , ثم تذكر فحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار: (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم) . . .

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها , من إعراض واستكبار وعناد وضلال - كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه - تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته , وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه , الإنذار بعذاب أليم , في الدنيا أو في الآخرة , أو فيهما جميعا .

من الآية 2 الى الآية 4

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ في اختصار , البارز فيه هو الإنذار , مع الإطماع في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ; وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب في الآخرة للحساب ; وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها:

(قال: يا قوم إنني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله , واتقوه , وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) . .

يا قوم إنني لكم نذير مبين . . مفصح عن نذارته , مبين عن حجه , لا يتمم ولا يجمم , ولا يتلعم في دعوته , ولا يدع لبسا ولا غموضا في حقيقة ما يدعو إليه , وفي حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم:(أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) . . عبادة لله وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيم على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع . وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله , وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحدة منهج كامل للحياة , يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ; ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق , ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس . . ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور , فيقوم منهج للحياة خاص . منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية , وإلى القيم التي يقررها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله . . هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج , وعدم التلغث عنه هنا أو هناك , وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه . كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله , بلا رياء ولا تظاهر ولا ممارسة .

وطاعة الرسول . . هي الوسيلة للاستقامة على الطريق , وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية , وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة !

فهذه الخطوط العريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده , وقد وعدهم عليها ما وعد الله به التائبين التائبين:

(يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) . .

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه و طاعة رسوله هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت ; وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال [وسيرد في الحساب الذي قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى في أثناء الحياة] .

ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمي يحيى في مواعده , ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا . . . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى:

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون) . .

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريراً لكل أجل يضربه الله ; ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام .

من الآية 5 الى الآية 9

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)

بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم - لو أطاعوا وأنبأوا - إلى يوم الحساب .

الدرس الثاني: 5 - 24 نوح يقدم خلاصة ما جرى بينه وبين قومه

وراح نوح - عليه السلام - يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه , بلا مصلحة له , ولا منفعة ; ويحتمل في سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء . . ألف سنة إلا خمسين عاماً . . وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ; ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد في نهاية المطاف يقدم حساباً لربه الذي كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ما صنع وما لاقى . . وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف , إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان . . إلى الله . .

قال: رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً , فلم يزدني دعائي إلا فراراً ; وإنني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم , واستغشوا ثيابهم , وأصروا , واستكبروا استكباراً . ثم إنني دعوتهم جهاراً , ثم إنني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً , يرسل السماء عليكم مدراراً , ويمددكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . مالكم لا ترجون لله وقاراً ? وقد خلقكم أطواراً ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ? والله أنبتكم من الأرض نباتاً , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً , لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً . .

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال ; عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حساباً الأخير في نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع: (إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً) . .

ولا يمل ولا يفتر ولا يئس أمام الإعراض والإصرار: (فلم يزدحم دعائي إلا فرارا). . فرارا من الداعي إلى الله . مصدر الوجود والحياة , ومصدر النعم والآلاء , ومصدر الهدى والنور . وهو لا يطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال !

فإذا لم يستطيعوا الفرار , لأن الداعي واجههم مواجهة , وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته , كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم , وأصروا على الضلال , واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى: (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم , واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا). . وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ; وإصرارهم هم على الضلال . وتبرز من ثيابها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز في وضع الأصابع في الأذان , وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل , وهو يقول: إنهم (جعلوا أصابعهم في آذانهم) وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة , إنما هم يسدون بها أطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها في عنف بالغ , كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضمنا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد , كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار !

ومع الدأب على الدعوة , وتحين كل فرصة , والإصرار على المواجهة . . اتبع نوح - عليه السلام - كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة , ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة: (ثم إني دعوتهم جهارا , ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) . .

من الآية 10 الى الآية 14

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14)

وفي أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخرة . أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو - سبحانه - غفار للذنوب: (فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفارا). . وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها وبرجونها وهي المطر الغزير , الذي تنبت به الزروع , وتسيل به الأنهار , كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها - وهي البنين - والأموال التي يطلبونها ويعزونها: يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . .

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله , وبين تيسير الأرزاق , وعموم الرخاء . . . جاء في موضع (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض , ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . . . وجاء في موضع (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وجاء في موضع (ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير , وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله . . .

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة , قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله , ومن سنة الحياة ; كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله , واتجهت اتجاهها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله . . ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته , فحققت العدل والأمن للناس جميعا , إلا فاضت فيها الخيرات , ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد في بعض الفترات أمما لا تتقي الله ولا تقيم شريعته ; وهي - مع هذا - موسع عليها في الرزق , ممكن لها في الأرض . . ولكن هذا إنما هو الإبتلاء: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف , تأكله آفات الاختلال الإجتماعي والانحدار الأخلاقي , أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان . . وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما في الرزق , ممكن لهما في الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفي الأولى يهبط المستوى الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية , ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار !! وفي الثانية تهدر قيمة "الإنسان" إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ; ويبيت كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح في تهمة تحاك في الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !

ونمضي مع نوح في جهاده النبيل الطويل . فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم , وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله , وينكر عليهم ذلك الإستهتار:

(ما لكم لا ترجون لله وقارا ? وقد خلقكم أطوارا ?) . .

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمرا يدركونه , أو أن يكون أحد مدلولاتها

من الآية 15 الى الآية 18

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَيِّبَاتٍ (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أُنْتَبِئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ تَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعَذِّبُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18)

مما يملك اولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه , ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر , يقودهم إلى الاستجابة . والذي عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المصغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل . . وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيم فكرة عن هذه الأطوار . وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة . من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة , ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا . ثم يأخذ شكل حيوان مائي . ثم شكل حيوان ثديي . ثم شكل المخلوق الإنساني . . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثا جدا . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين: ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . . كما أن

هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد . . ولا نقيدهما . .

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم , وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا , ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيرا للجليل الذي خلقهم . . وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق !

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح:(ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ?) . . والسموات السبع لا يمكن حصرها في مدلول مما تقول به الفروض العلمية في التعريف بالكون . فهي كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم - كما علمه الله - أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس , ويرون ما يطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ما هو ? فلم يكن ذلك مطلوبا منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن . . وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة . . وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث:(والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) . .

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر في القرآن في صور شتى . كقوله تعالى: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا). وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنبشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة:ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول:(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة , لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا , ثم لتبلغوا أشدكم , ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة , فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) . . وفي سورة "المؤمنين" يذكر أطوار النشأة الجنينية قريبا مما ذكرت في سورة الحج ويجيء بعدها:(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) . . وهكذا .

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب . فهي توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض , وأن نشأة الإنسان من الأرض كنبشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو , فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج

من الآية 19 الى الآية 20

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)

الأرض , وكلاهما يرضع من هذه الأم !

وكذلك ينشئ الإيمان في المؤمن تصورا حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء . تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية في الضمير . وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة .

والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها . فيختلط رفاتهم بتربتها , وتندمج ذراتهم في ذراتها , كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها ! ثم يخرجهم الذي أخرجهم أول مرة ; وينبتهم كما أنبتهم أول مرة . . مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقف عندها لحظة , حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها !

ونوح - عليه السلام - وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتا , وهي تعيدهم فيها مرة أخرى . ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها , وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البدهة التي لا تقبل جدلا !

وأخيرا وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: (والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا) . .

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة , ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسطة ممهدة - حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروبا وفجاجا , كما جعل في سهولها من باب أولى . وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ; ويتغنون من فضل الله , ويتعاشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة , يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علما أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وأفاق بعيدة .

هكذا سلك نوح - أو حاول أن يسلك - إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب , ومتنوع الوسائل في دأب طويل , وفي صبر جميل , وفي جهد نبيل , ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم , يقدم حسابه , ويبث شكواه , في هذا البيان المفصل , وفي هذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة , وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية ! فماذا كان بعد كل هذا البيان ?

(قال نوح: رب إنهم عصوني , واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا لا تذرن آلهتكم , ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . .

رب إنهم عصوني ! بعد كل هذا الجهاد , وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه . وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء . . بعد هذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة , التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد , ومظاهر الجاه والسلطان . ممن

من الآية 21 الى الآية 25

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَبَشِّرِ (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا
فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25)

(لم يزد ماله وولده إلا خسارا) فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال
, فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران .

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال . . (ومكروا مكرا كبيرا). مكرا متناها في
الكبر . مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس .
ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم . وكان من
مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة:
(وقالوا: لا تدرن آلهتكم). . بهذه الإضافة: (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة
والحمية الأنمة في قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنا
فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز .
(ولا تدرن ودا , ولا سواعا , ولا يعوث , ويعوق , ونسرا). . وهي أكبر
آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناما , تختلف أسماؤها
وأشكالها , وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ; وتجمع حوالبها الأتباع ,
وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام , كي توجههم من هذا الخطام إلى
حيث تشاء , وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد: (وقد
أضلوا كثيرا) ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار .
وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء !! للصد عن دعوة الله ,
وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة , بالمكر الكبار , والكيد والإصرار !

الدرس الثالث: 24 - 28 نوح يدعو على قومه وغرقهم ويدعو لوالديه
وللمؤمنين

هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح - عليه السلام - ذلك الدعاء على
الظالمين الضالين المضلين , الماكرين الكائدين:

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا). . .

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلا , وعانى كثيرا , وانتهى - بعد كل
وسيلة - إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الطالمة الباغية العاتية ; وعلم
أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة .

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح - عليه السلام - يعرض ما صار إليه
الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعا ! فأمر الآخرة كأمر الدنيا
حاضر بالقياس إلى علم الله , وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير
فيه:

(مما خطبناهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا).

فبخطبتناهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . والتعقيب بالفاء
مقصود هنا , لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ; والفاصل الزمني
القصير كأنه غير موجود , لأنه في موازين الله لا يحسب شيئا . فالترتيب
مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة .
وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة . . (فلم
يجدوا لهم من دون الله أنصارا). . .

لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة !

وفي آيتين اثنتين قصيرتين ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة , ويطوي ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والغناء . . ولا يفصل هنا قصة غرقهم , ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم . لأن الظل المراد إبقاؤه في هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع , حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق في حرف الغاء ! على طريقة القرآن في إبقاعته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن في ظلال

من الآية 26 الى الآية 27

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)

السياق لا نتعدها إلى تفصيل قصة الإغراق . . ولا الإحراق . . !

ثم يكمل دعاء نوح الأخير ; وابتهاله إلى ربه في نهاية المطاف:

(وقال نوح: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لي ولوالدي , ولمن دخل بيتي مؤمنا , وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) . .

فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه . وأحيانا لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين , لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا , ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح , وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازا كاملا لا يبقى منهم ديارا - أي صاحب ديار - فقال: (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) . ولفظة (عبادك) توحى بأنهم المؤمنون . فهي تحيي في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة العاشمة , أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار , وتوحى بالكفر من الناشئة الصغار , بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون , فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور , من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها . وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح عليه السلام , وحكاها عنه القرآن: (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) . . فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل , وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد , ينشأ معها المواليد فجارا كفارا , كما قال نوح . .

من أجل هذا دعا نوح - عليه السلام - دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته , فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ; وجرف العوائير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول: (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) - أي هلاكا ودمارا - إلى جانب هذا كان الإبتهاال الخاشع الودود:

(رب اغفر لي ولوالدي , ولمن دخل بيتي مؤمناً , وللمؤمنين والمؤمنات . . .)

ودعاء نوح النبي لربه أن يغفر له . . هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم . . أدب العبد في حضرة الرب . العبد الذي لا ينسى أنه بشر , وأنه يخطئ , وأنه يقصر , مهما يطع ويعبد , وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله , كما قال أخوه النبي الكريم محمد [ص] وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه , فاستكبروا عليه . . وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب !

ودعاؤه لوالديه . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين - كما نفهم من هذا الدعاء - ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شان ولده الكافر الذي أغرق مع المعرقلين [كما جاء في سورة هود] .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً . . هو بر المؤمن بالمؤمن ; وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه , وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً , لأن هذه كانت علامة النجاة , وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة .

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات . . هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان . وشعوره بأصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن . وهو السر **العجيب** في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها

من الآية 28 الى آخر السورة

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)

برباط الحب الوثيق , والشوق العميق , على تباعد الزمان والمكان . السر الذي أودعه الله هذه العقيدة , وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . .

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين , كان الكره للظالمين .

(ولا تزد الظالمين إلا تبارا).

وتختم السورة , وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبي الكريم نوح عليه السلام . وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك في القلب حبا لهذا الروح الكريم وإعجابا بهذا الجهاد النبيل , وزادا للسير في هذا الطريق الصاعد , أيا كانت المشاق والمتاعب . وأيا كانت التضحيات والآلام . فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . حين ينتهي بها إلى الله , العلي الأعلى , الجليل العظيم . .